موعد

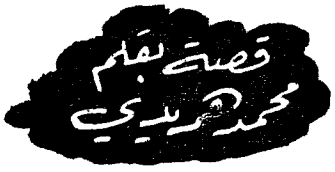

كان جالسا في « التريانو » حين وقعت عينه على النعي .. فطوى الجريدة متأملا واتجه من فوره الى مكتب « التلغراف » المقابل للمشرب ليبعث ببرقية عزاء الى « السويس » .

واعطاه الموظف ورقة فكتب فيها :

« الصديق العزيز ...

حزنت للنبأ الفاجع .. الهمكم الله الصبر على فقد كريمتكم . وتقبل صادق مواساتي »

ثم ردها اليه .

ـ تسمح ببطاقة سيادتك الشخصية ؟.

ـ بطاقتي ؟ لماذا ؟

ـ في مثل هذه المناسبات لا بد من البطاقة للتأكد . لا مؤاخذة هكذا الاوامر .

ومد يده يستخرج البطاقة من سترته ، وقبل ان يضعها امام الموظف ، سمع صوتا نسائيا يسأل :

ـ وفي التهاني أيضا ؟. .

ودلت صيغة السؤال على انه امتداد للمحادثة التي دارت بينه وبين الموظف ، وكان الرجل كان ينتظر ذلك فقال وهو يدون رقم البطاقة وتاريخها على الورقة :

ـ لا يا فندم .

«اما هو فاعتبر هذا تطفلا ، يستوجب نظرة توبيخ ثقيلة يرمي بها صاحبة الصوت .

« الى متى نتغافل عن الذوق ؟ » . وادار رأسه الى الوراء وهو ينحرف عن الصف ليخرج .

ـ ثريا ؟ !

وابتلعت نبضة الشوق المفاجئة نظرة التوبيخ الجافة . وتعانقت النظرتان في ليل ، وهو يضغط يدها بكفه المصافحة دون ان يرسلها ، لكنها خلصتها برفق بشوش قائلة :

ـ لحظة . ابعث بتهنئة الى احدى صديقاتي . اول مولود لها وضعته امس في « الماترنيتيه » .

وابتعد خطوات عن زحام الواقفين ، وفضولهم ثم وقف يرقبها من وراء الحاجز الزجاجي ، ويدير عينيه في المبنى الانيق النظيف ، وفي عشرات الارجل التي تصعد وتهبط على درجاته السبع ، وفي الناس المشغولين بالاخرين وفي هذا اللقاء الذي تجم بعد تفرق طويل . ترى ماذا يكون فيه ؟. عشر سنوات ونيف . لا شك ان الزمن قد محا فيها اشياء واثبت اشياء .. لكن « ثريا » ؟ الرغبة فيها سكنت حبة القلب ، وعاشت في دفء الدم تناوشه من حين الى حين . ولم يعجبه انها تعجلت ترك يده . « رواسب ولكنها ستذوب في بطء . مؤلم ان نراعي الحشمة في العواطف ، ولا نستحي من التبول في الطريق ومع ذلك ، يومنا خير من امسنا ، وغدنا سيكون أحسن » .

واستقرت عيناه على احدى عاملات « التليفون » . فتاة دون العشرين ، متبرجة جدا ، كانها مدعوة الى سهرة . الاظافر مطلية والوجه صفحة الوان فيها اسود واخضر واحمر ، وابتسامتها الفجة تكشف عن اسنان صدئة لها لون نخالة الدقيق المبلولة .

ـ تعجبك السمانة دي يارجل يابطال ؟

ـ مقرفة .

ورفعت حاجبيها ، فاستطرد كالمعتذر لانفجار صوته بالكلمة :

ـ لا اعرف الهمس اذا كنت واقفا . تعودت هذا من العمل في (السد) . تعالى نقعد ...

ـ أين ؟.

ـ في اي موضع تختارين . معي عربتي .

ـ وانا أيضا معي عربتي .

ـ واحدة تكفي .

ـ لا .

ثم وكأنها تحدث نفسها : « الامكنة في اغسطس لحم مرصوص، وانا لا اريد ان يراني احد مع رجل .

انا .. مطلقة » .

لم تكن كلماتها واضحة في سمعه تماما ، بيد انه استطاع ان يلتقط مدلول الكلمة الاخيرة . فتلوى في اعماقه احساس خاطف . فرحة خبيثة ممزوجة بالشماتة والرثاء ، ودبيب عاطفة تستيقظ .

« وضعت طرف الخيط في يدي ايتها السمكة المتوحشة » واستنكف ان يناقشها الآن او يستفسر .. فقط نبهها الى ان وقوفها في فناء هذا المكان العام ، يتنافى مع حرصها على الاستتار . ونظر من فوق كتفها المستديرة الى ساعة المبنى المعلقة ، فالفاها تشير الى الواحدة . وقرر ان يلزم البطء حتى لا ينقطع الخيط . وادلى باقتراحه :

ـ هل توافقين على ان نتغدى في « المكس » ؟ هناك سمك لذيذ ، والمكان من الاطراف الهادئة .

ـ انا نازلة عند خالتي في « السراي » فماذا اقول لها ؟

ـ ما شاء الله . كانك من تلميذات المدارس . ما دمت قد وافقت فستجدين الاعتذار المناسب .

وثبتت عينيها الحلوتين على نقطة ارتكاز انفه بين الحاجبين ، فاحس كانه محاصر ، وكان الشيء الخبيث الذي في اعماقه يمعن في الهرب ، على حين يغمر صفاء هاتين العينين كل وجدانه بالنظافة . وقالت في نبرة تفيد التذكير والتحذير :

ـ وزوجتك ؟ الا تنتظرك ؟ والاولاد ؟..

وترجم احساسه شحنة كلماتها الى معنى آخر ، فاحتواه شعور غريب ، فيه حنين وخوف ، وانتفاضة في الاحشاء تماما كشعور مودع يخشى ان تحترق الطائرة برفيقه . وقال باقتضاب :

ـ وهل نحن ذاهبان الى القمر ؟ اطمئني . زوجتي غضبى عند اهلها ، والعلاج ((بالراديوم)) حرمها الخلف .

وطرفت عيناها ، ثم استقرتا على شفتيه ، وقالت كالهامسة :

ـ موافقة على شرط . انا في عربتي وانت في عربتك .

وكان جوابه ايماءة من راسه ، اتجهت بعدها الى التليفون .

* * *

تبعت ((الاوبل)) ((رمسيس)) وجاوزا ميدان عرابي ، ثم حاذيا مبنى (الحقانية) الرابض ، فتطلع اليه في لونه الرمادي المغبر ،والى بابه الجنوبي المغلق الذي لطخته الايدي ، واستوت امامه غابة من الذكريات راح يخترقها في صمت . ابصر على يساره مدرسة (السبع بنات) وبار (القط الاسود) المقابل لها ، ثم على يمينه المسجد الصغير الذي تقوم فيه شجرة جميز مقام المئذنة ، ومقلاة الحاج صابر ـ كل شيء على حاله برغم ربع قرن من الزمان .

الحوانيت والمقاهي ، وشرفات المنازل في غلالاتها الترابية ، ولون الارض الرصاصي . حتى الطابع العام هو هو ، حيث يبدو الحرص على لقمة العيش في تضامن وبسالة .

وبغتة ، تخيل معارك شارع ((الهماميل)) الدموية في تقزز ، ومعارك هذا الشارع الاكثر ضراوة ، والتي كان يتشمم رائحتها في الجو ، فاذا ما بدت نذرها اسرع الى المسجد واختبا بين فروع شجرة الجميز ، ثم تتوالى قذائفه من الحجارة الصغيرة ، ويظل يصيب بها الانكليز والاستراليين ، كما يصيب العصافير التي يصطادها من حديقة الشلالات .

كانت المعركة تنشب فجاة ولاوهى سبب ، ربما من اجل كتكوت تهرسه عربة صفراء . ويأتي الرجال المدد من المقلاة ، خشب مشتعل ، وملح بمسحوق الكبريت يطمس على العيون الزرق .

ثم شجاعة ((فوزية)) راقصة البار ، وقتلها الضابط الاميركي بزجاجة خمر ، وجنون مراهقته ، وزيارات شارع ((الجنينة)) المستورة ، التي يبكي بعدها من الغيظ والندم ، حيث كان يجد هؤلاء الكلاب هناك ... ويراهم يعربدون في الاجسام التي اباحها الضياع !

شريط قذر طواه حين لمح ((ثريا)) في مرآة القيادة ، فاستسخف انصراف خاطره عنها ، وكر على الفور يستمتع بالتفكير فيها ، وهو يلعن غابة الذكريات المعتمة ، ويعاني الحيرة من قانون تطبقه الحياة بلا تفسير . بل ليكن تفسيره ما يكون صدفة ؟ حكمة ربنا ؟ المهم ان ((ثريا)) الآن معه ، بعد تلك الغيبة الطويلة . هكذا وبدون مقدمات .

اما حدوث اللقاء في الوقت الذي يزمع فيه البينونة الكبرى من امراته ، فامر ينبغي ان يتقبله بدون تعقيد . تلك اتسع خرقها على الاصلاح ، وفات اوان الانتفاع بها ((انتهينا)) . ومع السلامة يا بنت المقاول الذي يكره القطاع العام . عيشي ليالي القاهرة المضيئة مع غيري . عيشيها مع صديقاتك في لغو او لهو ، لست ابالي يا حبة عين امك . آثرت اهلك علي ؟ فضلت منزلهم على بيتك المكيف في (اسوان) ؟ مع السلامة يا بنت المقاول وشكرا لابيك .. فلو لم أكن عملت معه يوما لما عرفت ((ثريا)) . لكن بماذا اتملقك يا قانون الصدفة لتبوح بسرك؟ حيرتني في الاول وتحيرني الآن . ومبلغي من العلم انك خيط رفيع يحركنا دون ان نراه وكل حركة مرهونة بوقتها .

ـ اتفقنا ...!

قالها ابو ثريا في مكتب المقاول بالجيزة ، ثم اولى المهندس الشاب ثقته ليشرف على العمل .. وقبل ان يتم البناء الذي خططه على الورق كان قد عرف كل شيء عن الاسرة الصغيرة .

ثريا ، وامها التي ماتت من عامين ، والاب الذي يهيىء شقة جديدة لامراة جديدة ولا يرضى لابنته الوحيدة ان تعمل ... واصرار البنت على التوظف بمؤهلها العلمي الكيميائي .. ويومها فكر الشاب في هذه الجامعية الجميلة الجريئة الى حد المشاكسة ، وكان تفكيره قريبا ... وبقصد او بغير قصد هاجمته في عرينه . كان العمال يصبون السقف ، وسمعها تصرخ فيهم معترضة على قلة الرمل وزيادة الاسمنت . لا . كله الا هذا . وتصدى لها بالشرح والتحليل ، محتدا في البداية ومنتهيا الى ما يشبه السخرية منها .

ـ يا آنسة ، انت اخترت ان تذيبي هذا الجمال في ((الاحماض)) ، فمالك و ((الزوايا الحادة)) ؟

ولم تعتذر ، ولكن العلاقة بدات بدهشة فابتسامة ، ثم توقفت عند الموعد . ماطلته وماطلته ومماطلته ، واخيرا :

ـ قل ما عندك .

ـ سأقوله حين نلتقي في الهرم .

ـ أولسنا معا الآن ؟

ـ بلى . لكن النجار يدق المسامير في النوافذ ، والعمال آذانهم الينا ...

ـ هل تريدني ؟

ـ أريدك ... أ.. نعم . اريدك .

ـ كلم ابي .

ـ لكن ... نحتاج الى مزيد من التفاهم في جو هادىء .

ـ في بيتنا حديقة ...

واستعصمت ، وتتاركا على غير شيء ، ثم افسد ما بينهما طول التمادي ، وضرب الدهر فامتد جسر من الزمن طوله آلاف الايام .

وعاود النظر في مرآة العربة فابتسمت له ، واقتربت نهاية الطريق فمال يمينا ، ثم توقفا في المدخل المنحدر وسارت الى جانبه متجهين الى باب المطعم الشمالي ، ولاحظ بعد خطوات ، انها تباعدت عنه منحرفة الى اليسار ، وازداد انحرافها ، وهي تمضي الى الامام في شبه اندفاع . ولحق بها مندهشا ، ثم امسك بذراعها قبل ان يصدمها الحائط . كانت عيناها مفتوحتين لكن في شبه غيبوبة . وهزها برفق وهو يسند ظهرها الى ساعده ، وبعد نصف دقيقة ، دبت الحياة في العينين فنظرت اليه مغمغمة :

ـ لا تنزعج ، هذا يحدث قليلا ، يهرب الدم من نصف مخي ، فافقد الاتزان ، واذا كنت ماشية فقد انحرف بلا وعي كما رأيت ... وبعد ثوان اعود الى حالتي الطبيعية . لا تشغل بالك . الطبيب يقول انه نتيجة الارهاق .

ووخزه القلق ، فانتبه الى انها غدت انحف ، وان وجهها المزهر المغسول بضوء القمر مخطوف اللون ، وساءه ذلك ، ولم يدر ماذا يقول ، على حين انعكس في اعماقه احساسها بضرورة ملازمته . فوضع ذراعه على كتفيها وصدره يموج بحنان خالص ، واختارا منضدة بجانب نافذة شرقية ، وقعدا متقابلين .

ولمح ثقبي انفها ينفرجان مرة ومرة ، كما يفعل جواد سابح ، فاستشعر امتلاءها بالانفعال والكلام . واشفق عليها وعلى نفسه من رصيد لا خير فيه ... وأحب الصمت وكرهه ، وخاف من اثقاله المفسد ... وتساءل فيما بينه وبين نفسه : ((لماذا ننشر ما في الجعبة اذا كان لن يرضينا ؟ لكن السكوت الآن ليس من ذهب ولا من فضة ...

وانما هو كمد البحر الـذي تراه ، يدفعك الى شاطىء مهجـور ... قل ولو كلمة غزل خفيفة » . وأسعفته عيناه ، فراح يمسح وجهها بنظرة متمهلة ، كلمسات الاصابع ، جعلتها تبتسم ، ووجد لسانه ...

ـ نطلب قهوة ؟

ـ بعد الغداء .

ـ اذن نستعجل الطعام .

ـ يكـون احسن .

ثم في صوت منذر :

ـ معك لبان ؟

ها هي ذي تقرصك في خدك يا حفيد « السيد محمد كريم » .

ـ لبان ؟ على الجوع ؟..

ـ وماله ؟ زيادة تنشيط للجهاز الهضمي .

افق . لقد وضعت النوشادر تحت انفك .

واشعلت سيجارة وهي تتامل وجهه المربع الطموح ، ثم قدمت اليه العلبة فردها قائلا :

ـ لا . انا ادخن شيئا آخر . وبطريقتي الخاصة ...

ونظرت اليه مستنكرة ، فاسرع يقول :

ـ التدخين كالتقبيل ، يؤثر على القلب ... و

ـ تعني انك ...

ـ تماما . كلما اشتقت ان ادخن تكون سيجارتي قبلة ، ولهـذا احتفظت ببياض اسناني ، مع حرية التنويع .

ثم في صوت اقرب الى التمتمة :

ـ ربما لاني لم اجد التوليفة التي ترضيني ، ومع الوقت ادمنت « النيكوتين » داخل اي شيء ...

وغافلتها دعابته ، ولكنها استلذت معاكسته .

ـ تعليل ظريف . ما رايك لو كنت ادخن بهذه الطريقة ؟

واطل الفزع من عينيه الرماديتين وهو يقول :

ـ رأيي ؟ لا احترمك مطلقا ، فليس كل مـا يفعله الرجل يصح ان تفعله المراة ، على الاقل في عصرنا . ثم ان التقليد هنا ضار . ومـن ناحية اخرى ، ستكونين اما النار التي تاكل نفسها ، وامـا عقب سيجارة في القمامة .

ـ يا حفيظ ، يا حفيظ .

واردف وهو ينظر الى شعرها القصير الاصهب :

ـ انت شيء آخر . انت لي رغيف من الخبز الطازج .

وقالت هي في مزيد من التلذذ :

ـ يا حرام . تلقاك يا مسكين تتعذب في اسوان ، كلمـا اشتقت الى سيجارة !..

ـ آه . احيانا ، وفي هذه الحالة اقبل باطن كفي وظاهرهـا ، اربع مرات ، هكذا ...

واختطف يدها وراح يلثم ظاهرها مرتين وباطنها كذلك . وضحكت من كل قلبها لهذه الحركة الصبيانية التي لم تكن تنتظرها ، واسكرتـه نظرتها المبهورة ، فقال بمرح جاد :

ـ هذا تدخين بالايحاء . مجرد « ميسم » فارغ يوضع بيـن الشفتين ...

ورفعت يدها الى راسه وقالت وهي تحرك سبابتها وابهامها فـي شعره كمنقار حمامة لاقطة :

ـ بكّر عليك الشيب .

ـ ابدا . بضع شعرات لا بد منها . انها الرماد المتخلف مـن احتراق السجائر ...

ثم وهو يبتسم في مكر :

ـ اما لو كنت اصلع ...

فاسرعت بوضع يدها على فمه قائلة :

ـ يا خبيث . لا تجعلها نكتة مكشوفة ...

وبدا لها ان تصرفه عن هذا النحو من التفكير ، وكانت تعـرف مدى حبه لعمله ، واندفاعه في الحديث عنه اذا ما استثير فيه هـذا الجانب ، فقالت تهاجمه لتختبر معرفتها القديمة :

ـ كم سنة قضيتها في اسوان ؟

ـ اربع .

ـ ياه . كفاية . ارجع الى القاهرة الجميلة . مجرى النيـل تحول ، وفيه غيرك عشرات .

دفّ بيديه كنسر انتزع من عشه ، ونسي ان التي تكلمه هي «ثريا» بلحمها ودمها ، نسيها ، وهدر في جوفه الحب العميق الذي تعرفه .. وطار من مجلسه بالمطعم الى هناك .. الى حيث ضجيج الحياة القوية والجهد الخالق والعرق ، ومناقشات زملائه المهندسين امام الصخـرة العجيبة الشهباء ، تلك التي بقيت من التفجير كوجه هائل يبتسم ، وصوت « الكسندروف العبقري » وكلماته المركزة للصحفيين منذ شهور.

« ان امامنا عملا يوازي ثلاثة اضعاف العمل الذي اتممناه ، حتى مايو سنة ١٩٦٤ . اننا نواجه الآن اخطر وادق عملية .. وهي بنـاء جسم السد نفسه .. وكل طبقة من المواد التي تلقى وضعت بحسـاب الملليمتر ... » .

ونظر في عينيها ، واندفع يتكلم وكانه امام لجنة . تكلم عـن الخبرات الفنية التي تعتمد عليهـا المرحلة الثانية ، وعن خطوات السير في تلك المرحلة . النواة الصماء ، وخطوط الدفاع ، وميكانيكيـة التربة ، وعملية الحقن المستحدثة ، وقارن بالارقام بين السـتارة الرئيسية التي لهذا السد وتفوقها وبين الستارة التي تحت سـد « ميشان » في كولومبيا البريطانية ... وازدادت حماسته وهو يتحدث عن ضرورة الالتزام ببرامج محددة ينبغي الوفاء بها شهريا حتى يتـم العمل في تكوين الجسم طبقا للتصميم الموضوع في الموعد المحدد .

ونبهته حركة الخدم وهم يضعون الطعام الى ان صوته كان عاليا .

* * *

سالته وهي تنزع شوكة صغيرة كاد يلتهمها :

ـ كم مرة فكرت فيّ قبل الآن يا « سيد » ؟

ـ مرات كثيرة . ربما عـدد الشعرات البيض التي في راسي . وعلى فكرة عددها زوجي . وانت ؟

ـ ثلاث مرات فقط . صباح زواجي . وليلة طلاقي . واليوم .

ثم وهي تعبث بشارب سمكة جمبري :

ـ العدد فردي .

وبعد ضحكة قصيرة من انفها :

ـ ما هذا العبث ؟ كاننا صغار .

واستثقل ان يفسد الجو بالفضول او بحديث عن مشكلات حياته ، او حتى بسؤالها عن ملابسات الطلاق ... او عن مصير اولادها ان كان لها اولاد ... يعرفها عاقلة من يومها .. فلا داعي لافساد هضمهـا بالتنغيص :

ـ ثريا !

نقوش على الشرخ الأكبر

رغم الصبح الميت والليل الاحمق
أدمنت هواك المطلق
داريت دموعك عن سخرية الناس
حاولت .. تعاطيت الامنية الشمطاء ،
ان نحتد لنختار خطانا نحو المجد المرهون على عتبات
قرون خمسين
ونكون الفكرة للفكرة والوجه لذات الوجه المطعون
لكن بذور الخوف المرة تدفع غصني عنك بعيدا
ونعيق وحشي فوق رقاب الكلمات
حتى اذنيك .. بقايا حفريات

* * *

ما اكثر ما تنسبين
اني ولدك
اني أرتاد بلاد الفقراء فقيرا وطعامي من ثمرات الاحلام
اني أستأذن غصات الايام
حتى أرتاد جحيم الشهداء
لأكون نشيدا في أفواه الاطفال التعساء

* * *

جسدي العظمي اللحمي الدامي عند شريط الماء
يتمدد بين الرمل ويعرق هجسا وحماسا يحمله قيظ
الامل الى جنبات الارض نوادر خرقاء
أحفر في الرمل الخندق حتى تردمه اقدام اللحظات
استغرب قولا مأثورا كالصلوات :
ـ منذ الشرخ الأكبر لم نهزم
في الملحوظات :
اللعبة لم تبدأ بعد .

نشأت المصري

ـ نعم !
ـ في أي برج ولدت ؟
وهي تشير الى دورق الماء :
ـ في الدلو !
قال وهو يكتم ضحكة :
ـ وأنا في القوس . بين البرجين توافق شديد اذا لم أكن قد نسيت ما قرأت .
ـ جايز . ولكن المهم اني لم اضيع الفرصة من يدي . لمحتك وانت داخل مبنى التلغراف ... و ... وظهر اثر « التوافق الشديد جدا » كما ترى . وان كنت طول الطريق احاسب نفسي .
ـ ثريا !
ـ نعم !
ـ افكر فيك الآن بشكل آخر .
وتشاغلت بالنظر الى شراع بعيد يسبح نحو الغرب ، واستطرد :
ـ نضجنا والزمن لا يرحم . فهل توافقين ؟
ـ قد نكون مدفوعين بحرارة الشوق القديم !
ـ ثريا . لا تراوغي . انت فكرت ، وانا فكرت ...
ـ وعملي ؟
فقال في صوت مستبشر :
ـ في اسوان صناعات كيماوية . اطلبي نقلك . وسنعيش في جنة.
وراح يكتب عنوانه على قصاصة من الورق .
ـ ثريا ! انا في انتظـــار خطاب او تليفون . عـودتي بعد غد . اجازتك طويلـة ؟
ـ لا . راجعة الى القاهرة بكرة . لكن سأفيدك خلال اسبوعيـن على الاكثر بعد ان ادبر اموري .
ـ خلال اسبوعين ؟ يا طول عذابي .
ـ انت طماع !!

* * *

مضى الاسبوع الثالث كما مضى الاول والثاني . عمل يأكـل ما بين طرفي النهار وجزءا من الليل ولهفـة قلقـة تزيد الى حد التوتر، وتجمعت حواسه في قلبه ، وازدادت الفته ، لوجه الصخرة المبتسم . ويوما وهو في ظلها ، رأى الغول في سراب الظهيرة .. رآه يطـارد الاطفال والظباء . توهم ..؟ « لا تنزعج . هذا يحدث قليلا .. يهرب الدم من نصف مخي فافقد الاتزان و ... وقد انحرف بلا وعـي كما رأيت . وبعد ثوان أعود الى حالتي الطبيعية . لا تشغل بالك ... » .
وتردد الصوت في رأسه كالصدى !

رمل الاسكندرية — **محمد هريدي**